



كانت شجرة التوت الكبيرة التي تقوم على رأس حقلنا منذ عشرات السنين مقلنا من حر الصيف ، نأوى إليها إذا اشتد القيظ فنقضى النهار في ظلها الوارف السابغ ، ولا نمود إلى القرية إلا في ضوء القمر أو في لمح الشفق . كان ذلك دأبنا طيلة عطلة الصيف لا نمل هذه الدوحة ، بل لا نطبق أن

ينصرم أسبوع دون أن نقضى يوماً إلى جانبها ؛ هنالك حيث كنا ننعم بذلك الهواء الطرى الرخى الذى تستروح النفوس نسائه في أثمر الحر ولا تصيبه إلا في ظل مريحة فيضائه كتلك السريحة ، امتد من حولها الفضاء وانبسطت الأرض على قيد خطوات من تلك الشجرة الوارفة الظل بجري



من اللين منذ ثلاثين عاماً أو تزيد ؛ بنعقد على رأسه سجاج قصير من تلك الأقراص التي يتخذها الفلاحون من روث الماشية ، كأنما أريد به أن يزيد هامته بعض الطول ، أو يكسب جبهته شيئاً من الزينة . ولقد عبثت يد الزمن بتلك الأقراص فتآكلت جوانبها ، وبذلك الجهة الضيقة فتشقت حتى لتبدو شقوقها كأنها الفضون في رأس جلله الشيب وجمدته السنون . على أن ذلك الكوخ على ضمته كانت تفيض عليه بساطة من الروح والهدوء تجمل الأقدسة تهوى إليه ، وتصبو إلى الميضة القريرة الساكنة في جواره

في ذلك الكوخ الضيق يسكن (طبيب) البدوي

وامراته ، وابناها حنظل وراغب ، وبناتهما شرود ، وعز ، وشماء ، على أنهم لا يقضون تحت سقفه إلا ليالي الشتاء ؛ أما في النهار فاهم مضطرب واسع ومتنفس فسيح في ذلك الفضاء المحيط بهم ؛ وأما في الصيف فلم يكن ثمة من سقف يملوهم سوى تلك القبة الزرقاء تزينا مصابيحها اللامعة المتناثرة

ترعة من تلك الترع الكبيرة التي تنساب في الدلتا زاخرة في الصيف بذلك الفيض الذى يحمله النهر العظيم من تلال الحبشة فيملأ به الترع والقدرا ن فتجيش في أحياء الوادى بالقوة وتفيض على أرضه الخصب والرى وعلى مقربة من تلك الشجرة تقع المين على كوخ متواضع ، يستقبل الشمس إذا طلعت ، أقيم

أو ينيرها القمر المتلألئ الوضاح

كان شيخ العرب وهذا هو اسمه الذي اعتادته
الأسان يقوم على حراسة « الوابور » القائم إلى
جوار كوخه ، في بناء لم يتخذ من اللبن كما اتخذ
الكوخ ، بل من الآجر المتين ؛ وكان شيخ العرب
من أولئك الأعراب الذين ينتجعون الرزق في قرى
مصر ، فلما جرى بذلك « الوابور » أقیم على حراسته
بأجر معين . وهو إلى ذلك يرعى الأغنام ويتخذ
من أصوافها ومن لبنها أناناً وطعاماً ، كما يصيب من
بيع صغارها بعض المال

حللنا ذات صباح ذلك المقليل الحبيب تحت
هاتيك الشجرة ولم يبد من الشمس إلا نصف
وجهها ، فأخذ بعض الرفاق من بنى العم يبحثون
فيما ألقينا على الأرض من متاع ليهيئوا لنا الطعام
وقد أحسنا الجوع بعد سير ساعة ، ونحلقنا على
حصير حول الطعام ، فأكلنا في شهية كادت تصل
إلى الشره ، وكانت نفوس الرفاق جميعاً تفيض بالرح
والبهجة ، يزيدهم انتعاشاً نسيم الصباح الجميل الواني ،
كما كان كل شيء حولنا ينبىء بأننا سنقضى يوماً
سعيداً

وأقبل شيخ العرب ، وكان قد ذهب مبكراً في
بعض شأنه إلى غربة على بك وهي تقع غير بعيد على
الضفة الأخرى للترعة ؛ ودعواناه إلى الطعام فأصاب
منه يسيراً . ولما فرغنا انصرف الرفاق إلى ما اعتادوا
من لهو ، فبعضهم ذهب يصيد السمك ، وتأهب
البعض للعب النرد ، وكانوا قد جاءوا معهم بصندوقه ،
وبسط البعض كومة من التراب ثم خططوها
وهيأوها للعب « السيجة » . أما شيخ العرب فقد
أسند ظهره إلى جذع الشجرة وجلس يدخن وهو

مطرق كأن به عماء . وجلست إلى جانبه أحادته وأدابعه
كما دنى ، فسألته استبطان دخيلة نفسه :

— ما حال إبراهيم اليوم يا شيخ العرب ؟

— ما زال على حاله من الغضب والعنف ،

لا يسكت لسانه ، ولا تهدأ ثورته . يهدد ويتوعد ،
ويقسم الإيعان على تنفيذ ما اعتزم ، على الرغم من
نصحنا له وزجرنا إياه

كان إبراهيم هذا شريكاً لشيخ العرب في بعض
غلماته ، توشجت بينهما أسباب المودة ، وتوثقت
روابط الألفة ، وأحبه شيخ العرب حباً شديداً
ولا سيما بعد أن خطب إليه ابنته عز . كان فتى في
نهاية العقد الثالث من سنى عمره ، طويل القامة في
غير إمراف ، ريان البدن في غير امتلاء ، مفتول
العضل ، وسيم الحيا ، يرف في مقدمة فوديه وشم
عصفورين باسطي الجناح ، تزداد زرقة لونهما وضوحاً
في تلك الحمرة التي أشرب بها وجهه الوضىء الأبلج .
تلحج نبل نفسه في عينيه الواسعتين الجليتين اللتين
كانتا مضرب المثل في حدة البصر ، وتبين قوة
عزمه وإباء طبعه في أنفه الطويل الأثمن وشاربه
المرهف المبروم ، كما تلمس صرامته وجراة قلبه في
سداد نظراته ولهجة حديثه وإشارة يديه . ينظر إليه
النساء والبنات نظرة الصباية والاعجاب ، ويرمقه
الرجال معجبين بفتوته وخفة حركته وروعة قوامه ؛
وهو إلى ذلك ماهر اليد ذكي الفؤاد في كل ما يطلب
إليه من عمل ؛ يغزل الصوف في سرعة عجيبة وإتقان
مدهش ، وينسج رقعاً جميلة النقش بهيجة الألوان ،
خبير بالنماج غير الجيدة منها لأول نظرة ، خبير بما
يصيب الغنمات من علل ، بصير بما يلزمها من علاج
أو جيرة ؛ يقظ في السوق لا يخدع في شراء ولا

إليها بصره الحديد ! ولا تنسى هي إذا خرجت
ترعى الغنم في متوع النهار أن تلف خصرها الدقيق
بجزامها الأحمر الذي غزله بنانه ونسجته كفه ،
ولا تحمل معها غير ذلك العود من شجر اللوز الذي
أهداه إبراهيم يوماً إلى أبيها . وهو يتبعها ببصره
أينما اتجهت ، حتى إذا اشتد وهج الظهيرة أوبا إلى
شجرة نخاسا يطعمان مما حملا معهما من زاد

كان من أبهج الأيام عندنا أن يكون معنا
إبراهيم ، إذ كان يتيح لنا لعبه السيجة مع شيخ
العرب فرجة ممتعة ، كما كنا نطالب إليه بعض
الواويل فنصفي إلى حديث قلبه وخاجات نفسه
يفيض بها لحنه الفتى ، ورسالها في الفضاء صوته
القوى ، ولكننا لم نجد هناك تلك المرة ، كالم
نجد في المرة السالفة

كان آخر مرة لقيته نائراً لا يقر ، مغيظاً محنقاً
كأنه في نوره النمر المزجر المحتاج ، وقد اختفى فيه
ذلك الانسان الباش الرزين . ففرز من مكانه كالسهم
إذا انطلق فواجه أخته وكانت لدى باب الكوخ
تتحدث إلى عز ، فحماق برهة في وجهها الذي
سرت فيه صفرة كأنها صفرة الموت ، ثم بصق في
هذا الوجه وهو يكاد يتميز من الغيظ ! يحبس
لسانه لكيلا ينطق أمامنا بما لا يابق من خش
القول ، وهو يحرق الأرم ، وينبث من عينيه
بريق الشر والمقت ، ولولا نظرة ملامة من عز
خفت حدته وردت وثبته لحطم يديه رأس أخته
التي كانت تنفض أمامه انتفاض المصفور باغته
الصقر ، أو الصبي صور له خياله أنه يبين يدي
شيطان ! ثم التقط عصاه وأخذ سبيله مبتعداً عنا
دون تحية أو التفاتة ، وهو يتوعد ويؤكد الأيمان

بغنى في بيع ؛ يشارك الفلاحين في أعمالهم وهو
ذلك الراعي فيحملهم على الإعجاب به والاعتراف له
بالتفوق ، فخطوطه في زراعة القطن كأنها ضربت
على خيط ، وآراؤه في السداد والبزور وأوقات الزرع
والحصاد آراء الخبير المحرب ؛ هذا إلى ذهن فطن ،
وعقل مبتكر ، يفهم ما يلقى إليه أول مرة في سرعة
ويسر ؛ وراه إلى جانب ذلك كله المقدم التفوق في
اللهو واللعب ؛ ينازل الرفاق في لعبة السيجة فيظهر
عليهم ويسخر منهم ويلعب « الخطب » فلا تخطىء
يده ولا تسكل عصاه ، وبغنى في الأرغول أماشيد
حماسية تبعث في قلوب خلانه الطرب والقوة

تمثل له في عز طيف أحلامه وصورة خياله
فأسلم لها قلبه وأساس قياده ؛ يرى فيها ما لا تراه
عيناه في غيرها من بنات العرب ، فحياها الجليل
الصباح فتنة ناظره ، وعيناها الضاحكتان الدماخاوان
بهجة فؤاده ، وقواها المرفف الرشيق متممة روحه ،
وحبها الذي تسكبه على قلبه في حرارة وقوة هناة
نفسه ونعيم حياته . يرى في أتران خطواتها وسرعة
التفاتاتها صورة من نزوع نفسه وتوئب همته ،
ويحس في حذقها ومهارة كفيها ظلاً من مهارته
وكفائته ، ثم يرى في رفق حديثها وهدوء طبيعتها
ما يعوزه من رفق وهدوء ، وما تنوق إليه نفسه
من سكينته واطمئنانه . على أن أهم ما يسمو بها في
عينه طهرها الذي جمعت به بين بأس الرجال ونمومة
الأبكار ، والذي جعلها كالورد في أعلى الفصن
تأخذها العين قبل غيرها ولكن يحول دون الوصول
إليها علوها أولاً ، ثم ما يحيط بها هناك من أشواك
يرعى غنائه في الأرض الفضاء ؛ فيراها عن
بعد وسط غناتها وحدها أو صعبة حظيل أو مع أمها
أو إحدى شقيقتيها فيعرفها قلبه ، قبل أن ينفذ

الزينة ، وتبالغ في التبرج ؛ فقد ماها الصغيرتان ناءلتان أبدا ؛ وترى نعلها الأصفر الدقيق نظيفاً كأنه لم يمس الأرض ، ومن نطاقها الأحمر المحبوك حول خصرها تتدلى على مرطها الأسود اللامع خيوط مختلفة الطول مشكلة الألوان تنتهي بذلال تلو وتربط وتمايل بمنة وسرة كلما خطت خطوة أو حانت منها التفاتة . وفي صغيرتها شريطان ساطعا اللون معقودان ولكنهما لا يستقران على رديهما في موضع ؛ أما شتوفها وأقراطها وخواتمها وخالخالها فلم تقتنع في اقتنائها بما دون الفضة . وتراها في مشيتها كالطبية تبث في الحقول من حولها السحر والجمال ، فإذا تغنت أو ضحكت أطلقت نفسها على مسجيتها فلأنك حدة نبراتنا وحلاوة صوتها نشوة وفتنة ، وحمك فيض مرحها على مشاركتها ولو كنت ضائقا بهمك

ولكن الفتيان والرجال لا يذكرونها إلا في تناقض وهمس ، وتراهم إذا جاء حديثها يتبادلون نظرات الخبث ، ويتناولون عبارات اللغو ، وترى كلا منهم وقد تشكلت أساريره بما يحول في نفسه واختلجت عيناه بما نعى إليه أخيراً من أمرها

راح شيخ العرب يقص على من حديث إبراهيم وأما مصغ بسمى اليه ، مقبل بحوامسى عليه قل : — أرايت ما كان من ثورته غداة كانت سكينته

هنا تمر الى عز بعض حديثها ؟

— رأيت ذلك فخيرني وأزعجني

— إذآلو علمت ما كان بينه وبين زوجها شبل

وما دب بينهما من شجناء وبغضاء ...

قال ذلك وأطرق كمن يشغل رأسه هم فاستفهمته ماحدث ، فأخبرني أن الرجلين يتربص كلاهما بالآخر

وظلت أخته في مكانها لدى الباب واجهة أول الأمر ثم ما لبثت أن عاودها هدوؤها ، وانبسبت أساريرها كأن لم يكن هناك شيء ؟ ولعلها أرادت بذلك السكون أن تتظاهر أمامنا أن الأمر هين وأن ما يفضب أحاسها لا يستحق كل هاتيك الثورة ؛ بيد أنه لم يكن سكوتاً متكلفاً يحجب وراءه اضطراباً أو إشفاقاً ، فلقد هالتنا في عينيها نظرات جريئة غريبة ، نظرات من يحس أنه في موقف العار والخزي ولكنه لا يستشعر ذلك الخزي ، ولا يرى مكان الخجل من عيائه إلا التبعج الباهم الذي يدل على أنه يحس كل شيء ولكنه لا يبالي بشيء

كانت « سكينته » وهذا هو اسمها فارحة الجمال رائحة المحاسن ، لطيفة التكوين تحس هذا الجمال وتدرك بغير زتها مدى أثره في نفوس الفتيان والرجال فتعمن في الدلال وتسرف في إبداء زينتها ، وليس أحب إلى نفسها من أن ترى ما يفعل جمالها بقلوب الشباب ؛ لها عينان هما السحر أو يقصر عنهما السحر ضاحكتان أبداً ، ساطعتان كأنهما نجمتان جريئتان وعجاوان نصوصهما الى القلوب ولا تستردهما من حياء كما تفعل النسوة ، كأنما تريد أن تجهز على صرعاها ؛ وما استطاع فتى لمح عينك العيين مرة أن ينسى سحرها أبداً . هذا الى جبين صقيل وخذ أسيل يبدو مشبعاً بالجمرة مع ما يحسه من سفع الشمس ، وفم يرف كما ترف الزهرة في ندى الصباح يحتاج عليه البسات ، ويتقسم بينه وبين عينيها النظرات ، وأنف لطيف دقيق إذا تغير قيد شعرة عما هو عليه فلان يواهم تلك القسما وهي لا تقتنع بما أسبغته عليها يد الطبيعة من حسن فتراها تعمن في

حوله أو هلكوا ! بخيل شديد الحرص ، بحاسب ناظر زراعته على المليم حسابه إياه على الجنيه ، لا يذكر حسنة ولا ينسى إساءة ، يقيم نفوذه على البطش والجور ، عسوف عنوف لا تأخذه رافة بأحد ، لأنه يرى الرافة ضعفاً لا يليق بمثله ؛ لا يعدل نبوغه في جمع المال من شتى الوجوه إلا بهارته في إحكام اللدائس وتدبير وسائل الكيد ؛ على أنه في اشباع شهواته قد فات كل نبوغ وتعدى كل حد ، حتى ليتلاشى لقاء تلك الناحية فيه كل نبوغ آخر ! وقل في الناس من تكون له مثل تلك القوة البهيمية التي لا تعرف كلالاً ولا تحس مللاً

رأى وهو على حمارة إلى غربته في ثلاثة من رجاله ذات صباح امرأة في ظل شجرة ، فكأنما تلاشت كبرياؤه بغتة . سأل رجاله في غير ترفع وفي غير حياء : من تكون تلك المرأة ؟ فأخبروه أنها سكيينة الأعرابية فمجب كيف تكون في غربته ولا يعلم بها ! فأفهموه أنها زوجة «النفرة» الجديد شبل ، فسرت في وجهه أولاً أمارات الارتياح ، ثم علم أنها أخت إبراهيم الأعرابي فامتعض وانقبضت أساريره ؛ وبداله ، فاستعاد كبريائه وراح بعمان سخطه على وجود امرأة في طريقه دون حياء كأنما هان على الناس أمره ، واعتذر إليه أعوانه بشتى الماذير فهي أعرابية جاهلة ، وهي لا تعرف أن هذا طريق البك إلى مزارعه ، وهي لن تعود إلى ذلك بعد اليوم ، إلى غير ذلك من وجوه الاعتذار

على أن البك وإن تظاهر بالمرزة في الناس ، تهون عليه نفسه فيما بينه وبين نفسه . وسرعان ما تهافت على سكيينة حتى صارت شغله الشاغل ، وسرعان ما صار لزوجها الخطوة والمال ؛ وقد عرفت الأعرابية الماكرة ناحية الضعف في هذا المتعاطف

يريد أن يقتله ، وأن الأمر وصل بينهما إلى مثل ذلك التخرج والعدوان ، فقد حدث أن لطم إبراهيم زوج أخته أمام جماعة الفلاحين من أقرانه في غربة على بك ثم راح يكيل له السباب المقذع الذي يستفز الجبان ، ثم اختفت من غم شبل عشر نعمجات ، ووجدت إحدى بقرنيه ميتة والأخرى بين الموت والحياة ؛ والناس جميعاً موقنون أنه ما فعل هذا غير إبراهيم بعد أن تهامس أهل المرزة بما شاع عن سيرة أخته ، وهو مصمم إذا أراد ، جرى إذا انتوى ، عات إذا نفذ ، ليس في المرزة كلها من يخرج على سطوة على بك ويستخف بسلطانه سواء . على أنه اليوم لا يرى شبالاً كغفاً لخصومته ، بل إنه لينظر إلى من هو أعظم وأسمى ، ينظر إلى على بك نفسه ويرى فيه غريمه وعدوه الألد . أو ليس يعطف اليوم على شبل العطف كله ، ويمد بهالة ويمقيه من مشاق الأعمال ؟ وكيف يصبر إبراهيم بعد أن يتبين أن البك إنما يفعل ذلك كله من أجل سكيينة وعيني سكيينة ؟ كيف يطيق إبراهيم أن يلقى الناس ويحتفظ بينهم بمكانته وهو اليوم يتبعه الفضيحة أينما سار ، ويأتيه العار من كل مكان ، ويقاهم الخزي إلى حل

كان على بك من أرباب الضياع ، يتحدث الناس بما كان لجده من ثراء وجاه ؛ ولقد تقاسم بنوه من بعده هذا الثراء الضخم وذلك الجاه المريض فانتهى إلى على بك بن حسن بك منه جانب كبير ؛ ولكن أخلاق جده انتهت إليه كاملة ، فهو شديد الكبرياء عظيم الأنفة غليظ القلب ، ينظر إلى أهل غربته جميعاً نظارته إلى عبيده وإمائه لا يهمه إلا أن يشبع بطنه ويملأ جيوبه ، عاش من

المتجبر فأسلست إياه وحطت من كبريائه ، تدل عليه متى شاءت فان يستطيع قبض كفه عنها ، وتمكر به فلن يقوى على إرغامها ، وهى تقترب إليه مرة وتنفر منه مرة فلا تجد فى الحالتين إلا الخضوع والاستسلام من ذلك البك العانى ! وأى خضوع هذا الذى يجعله على الرغم من مكانته لا يتورع أن يتردد على كوخها بنفسه متخذاً من الليل ستاراً ؛ ذلك الكوخ الذى اختاره لها بالقرب من مسكنه غير عابى ، بما يقول الناس أو بما يقولون أما زوجها فقد تناقل عن هذا كله وتجاهله ، وحسبه ما يصيب من وراء ذلك من مال أو حظوة عند سيده ! وما كان هذا الضعيف ليملاً عبنى زوجته المتبرجة الشرود . فهان عليها أمره منذ أن تزوجها ؛ وما مهذل له سبيل هذا الزواج سوى صداقته لابراهيم منذ حدانتهما . ولقد رضيت به كارهة مرغمة ، ثم ما لبثت أن طرحته وراء ظهرها فلم ترع له حقاً أو قل لم تحس له وجوداً . ولقد ظلمه ابراهيم حقاً فيما انتقم به منه فما هو إلا أداة تافهة حقيرة ، لا يملك من أمره ولا من أمر زوجته شيئاً

أفاض شيخ العرب واسترسل ، وما كان يمتنى إلا ابراهيم ، وقد عرفت الآن سر غضبه ، وبواعث ثورته . أيستطيع وهو فرد فقير أن يقاوم البك وله من الأعوان والجاء ما يقابل به بلده بأجمعها ؟ ورأى شيخ العرب فى حديثه إشفاقاً عليه ، وفى عينى لهفة لساع بقية خبره فقال : كثيراً ما طلبت إليه أن يأخذ حذره ، وألا يطلق لسانه بما لا يليق ، وعلى الأخص لأن خصمه ماضى البطش ، سريع الانتقام ، فظيع القدر ، لا ينجو من كيده عدو ، ولا يفر من حباله مسىء ، ولو كان

كسحنة الحبشى ، بيد أنها كانت على الرغم من ذلك تمكس أشعة الشمس ، فيشتد بريقها حتى يخطف الأبصار

وانتهبنا على حين غفلة إلى الكلاب تجرى نابجة نحو التربة ، فالتجعت أبصارنا جميعاً إليها ، ولكننا لم نر غير الماء ينساب مسرعاً دافقاً ، وماهى إلا لحظة حتى رأينا حنظل يجرى نحو الضفة ومن ورأه راغب ، وما يشير إلى الماء ، وتبعتهما عن وهي تؤيدهما بقولها : إنها جنة آدمى وليست جيفة حيوان . وأمرعت إليهم أمهم فوقفت معهم ، ولكنها كانت تخالفهم قائلة : إنها جيفة حمار . وأمعنا النظر في الماء فرأينا شيئاً سابحاً ، يتحرك حركة غريبة ، هى حركة تدفق الموج ، ولم نتبينه أول الأمر إذ لم يكن يطفو منه فوق الماء إلا جزء يسير ؛ ولكننا استطعنا أن نرى كنتفاً آدمية عارية وجزءاً من الذراع ، ثم مالبت الرأس أن تبدي برهة ولكنه عاد فاخفى ، ثم برز الوجه وبرز إلا قليلاً والتيار يحمل الفريق مسرعاً فيبدو للعين من أجزاء جسمه ما يبدو حسب حركة الموج . ولقد أحزننا ذلك المنظر وروعنا ، ورأينا بعض الناس على الضفة الأخرى ، وكان الفريق أقرب إليها منا يرفمون أصابعهم بالتشهد ، كما رأينا بعض الغلمان يتجمعون ويجرؤن على الشط قبالة الجنة ؛ وكاننا جمد شيخ العرب فى مكانه فلم يذهب إلى حيث كانت تقف زوجته وأولاده . وشمل الجو كله من حولنا رهبة شديدة وكآبة قابضة ، والفريق يجرى به الموج فيدخل فى ظل بعض الحشائش ، ثم يخرج منها إلى ضوء الشمس ثم رأينا خمسة من الرجال باتون مسرعين على الشط الذى كنا نقف عليه ، فساروا يتبعون الجنة

فى هس : « رأيت كيف يكون مبعث البلوى هؤلاء السادة ، ثم تبهموننا نحن الأعراب بأننا أصل الحوادث ، والحكومة تأخذ بما يقولون ولا تفكر أن تبحث أسباب تلك الحوادث ، أو تتبين بواعثها الخفية . . . »

وتوقف محدثى على نداء ابنه راغب :

— أبتاه !

— ماذا يا ولد ؟

— حنظل وعز وأبى والغنات ... هاك ...

هاك إيش ها تريد يا بوى ؟

— ما أبغى شىء يا ولد ... اسكت

ولما وصلت عز وأبى وأخوها من «سرحتهم» إلى باب الحظيرة ، أشار شيخ العرب إلى ابنته فجاءت مسرعة وحيث فى طلاقة وهدوء ، وعلى وجهها مسحة من ههما الدفين ، وقال لها أبوها : « إكبرى النار يا بنت ، وهات الشاى » ، وأعطيناها بعض ما لدينا من الشاى فذهبت لعمله ، ثم جاءت أمها فحيت وجلست ، وجلس حنظل غير بعيد منا وفى يده مغزله وصوفه

وجاءت عز بالشاى ، فتهدت أمها وهى تحمدهما حدج الاشفاق ، وقال لها أبوها وهو يخفى همه : « دبرى الشاى يا عز » ، وتناول كل منا من يدها قدحاً من تلك الأقداح الزجاجية ، ورحنا نحشى الشاى فى صمت

وكانت الشمس قد لآلأت صفحة الماء بأشعتها القوية التى كانت تبدو لأعيننا أعظم ضوء أو أشد وهجاً ونحن فى ظل الشجرة ، حتى لقد كان يصعب على بعضنا أن يدبم النظر لحظة إلى الماء ، وكان الماء يومئذ مثقلاً بذلك الغرين الذى يفهم به النهر الحبيب فى زمن فيضانه ، فكانت صفحة التربة

لبثت تنتظر وهي لا تدري من الفريق ، ولكن لم يطل انتظارها ، فقد عاد راغب مسرعاً وكأنه يحمل إليها نبأ سارا ؛ وقال في سداجة الأطفال وبراءتهم : « يا غزى يا أختى إنه ابراهيم أخو سكيبة » صرخت الفتاة مذعورة للنبأ الفاجع ، ولكنها حتى في ذلك الموقف تداركت وجودنا فقطعت صرختها وهزولت نحو الكوخ ؛ وهناك أبصرناها تسقط لدى الباب مغشياً عليها ، فخرينا إليها ولكن عبتاً حاولنا أن نفعل شيئاً ، وأخذنا في أمرها من الارتباك ما يأخذ الرجال عادة في مثل ذلك الموقف . بيد أننا أسرعنا فأرسلنا من أحضر أباه وأمه ، فجلست الأم بذلك يديها ورجليها وقد ألقت رأسها على ركبتيها ، وأبعدنا نحن الرجل قسراً عن الكوخ وأجلسناه بيننا تحت الشجرة وبه ضعف ما بابنته ، ولم يفق حتى أفاقت من غاشيتها ، وكأنما عقد اليأس لسانها أو ذهب الهلع بابها فلم تقل شيئاً ، وكذلك انعقد لسان أبيها فلم يتحرك وهو بقباب كفيه في جزع لن يصفه كلام

وجلسنا نحن حوله وكأننا قوم اجتمعوا في مأتم فلا تتسائل إلا بالألحاظ ولا تتجواب إلا بالأياء . وسر الرجال بعد لحظة يحملون غريبتهم على محفهم التي أعدوها ، يريدون أن يترعوا بجثته حتى يخفوا الحادث

قضينا يوماً كشيئاً ثقيلاً لم نستطع أن نكمله فعدنا إلى القرية في عصره ؛ وانقضى الأسبوع وحل موعد الذهاب إلى التربة ، ولكننا لم نذهب فقد علمنا قبل ذلك الموعد ببليسة أنه قد ألقى القبض على شيخ العرب فقد جاء ذكره في قضية مقتل على بك فاستدعى لسمع أقواله إذ قد حامت حوله بعض

الظن

الشبهات

ربما تجنح ، وفي وجوههم حسرة واهتمام شديد وكانوا يصيحون بقولهم : « البر البر يا طالب الدفن » ومن معتقداتهم أن الفريق يجنح إلى البر إذا صاح الأحياء أمامه بتلك العبارة

وليت شعري هل استمع الفريق إليهم حقاً ؟ فلقد أبصرناه يجنح إلى الشاطئ قليلاً قليلاً حتى أوشك أن يلامسه غير بعيد منا ، ولكنني لم ألبث أن تبينت سير جنوحه ، فان انثناء التربة في ذلك المكان جعل الموج يرتد من الشاطئ الآخر إلى شاطئنا فوجه إليه الفريق شيئاً فشيئاً

وذهبتا وذهبت امرأة العربي وابناها لرؤية الفريق . أما شيخ العرب فلبث في مكانه برهة ، ثم قام فتجامل على نفسه وسار يحرق رجله ليلاحق بنا ، وهناك رأيناه وقد أخرجه الرجال ممدداً على الشاطئ وقد تمزقت ملابسه وتورم جسده : رأينا ابراهيم جثة هامدة ولا حظنا على فيه ضربة وفي عنقه أثر شجار عنيف ؛ وتجلد الرجال فصنعوا من عصيهم محفة ألغوه عليها وخاموا عليه بعض ملابسهم ووقفنا نحن مشدوهين أمام هذا المنظر وفيما من لم يستطع أن يحبس دمه على الأخص لرأى ذلك الشيخ الذي أذهله الرعب فتركه كالأصم أو المجنون وسرنا نحو الشجرة فرأينا غزى وأخواتها في انتظار النبأ فما كان لهن أن يرين غريقاً ربما تعرى جسده . وهل كانت تستطيع غزى أن ترى هذا الفريق ولو كانت على جسده من الثياب أطولها وأعرضها ؟ هل كانت تستطيع أن ترى خطيبتها وحبيب روحها ممدداً على الشاطئ جثة هامدة متورمة ؟ هل كانت تستطيع أن ترى ابراهيم وأصحابه من حوله مسحون دموعهم بأكفهم وهم من أشداء الرجال ؟